

المؤثرات الفارسية

في شعر الأعشى

(الصفحات ١٦١ - ١٨٨)

ملخص

العلاقات الحضارية بين الإيرانيين والعرب توطدت بشكل كبير بعد أن تشرف العرب والإيرانيون بالإسلام فاصبحوا بنعمة الله إخوانًا. غير أن هناك دلائل تشير إلى أن التبادل الحضاري كان قائمًا قبل الإسلام أيضًا على مستوى محدود جدًا، وربما كان هو السبب وراء ما حققه الإسلام في زمن قصير جدًا من فتح إيران ومشاركة الإيرانيين في الفتوح الإسلامية منذ القرن الهجري الأول، ووراء إقبال الإيرانيين على تعلم اللغة العربيّة وخدمة هذه اللغة. ومن أمارات العلاقة بين الجانبين قبل الإسلام ما نراه في الأدب الجاهلي من مفردات فارسية واتجاه حضاري مدني أحيانًا، ويمثل شعر الشاعر الجاهلي الأعشى واحدًا من تلك الأمارات. والأعشى أدرك الإسلام ولم يُسلم بسبب ما أوحى إليه أبو سفيان من زخرف القول. وتردده على مدينة الحيرة قبل الإسلام هو العامل الثقافي الأول في شعر الأعشى لارتباط هذه المدينة بالحضارة الفارسية. كل دراسة لطواهر

* - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة دمشق.

الحياة الجاهلية الأدبية والثقافية والدينية لها أهميتها لأنها تلقي الضوء على فترة إرهاصات ظهور الدين المبين، والتعامل الحضاري بين الشعوب الإسلامية بعد هذا الظهور.

تقديم

يعد التقدم العلمي أحد مقاييس الاستدلال على التقدم الحضاري، ولكنه ليس الوحيد في نظرنا . فالتقدم الحضاري قد يظهر بأشكال أخرى، كالمدينة والرقى في نمط العمران ونظام بناء القصور ودور العبادة، ونظام الحدائق، وازدهار التقاليد في المأكل والمشرب والملبس، وفي أثاث البيوت...وفي الغناء وأنواع والموسيقى وآلاتها...

ولعل الرقى الأدبي خاصة والفكري عامة يتربع على عرش أشكال الحضارة لأنه يدل على ثقافة شعب من الشعوب وعلى التطور في السلم الحضاري... وما من شك في أن فارس في العصر الجاهلي كانت متقدمة بمدنيتها عمراناً وحياة اجتماعية، أما العرب فقد فاقوا الأمم الأخرى بفنهم الشعري. «وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون»^١.

فالأدب أحد أبرز أشكال التقدم الحضاري والاستدلال عليها، ولا زال الأدب الجاهلي الصورة الأولى للأدب العربي الناضج، ومصدرًا غنيًا لعدد من الدراسات الفنية والنقدية والفكرية.

وحين يحاول المرء رصد المؤثرات المتعددة في ذلك الأدب وفي ضوء ظاهرة التأثير والتأثير كواحدة من مفهوم الأدب المقارن المعروف في أيامنا هذه فإنه يقع على شكل فريد لهذه الظاهرة، إذ تمثلت بتأثر الأدب الجاهلي بمدينة فارس وغيرها،

● حسين جمعة

وبلغتها، لا بأدبها.. فهناك أثر واضح لمدينة فارس في أشعار الجاهليين، وظهر بأشكال متعددة، وتفاوت بين شاعر وآخر... مثلما تفاوت بين قبيلة وأخرى بعداً عن فارس أو قريباً...

فالقبايل التي عاشت في العراق وشرق الجزيرة العربية كإياد وعبد القيس كانت أكثر تأثراً بفارس من غيرها... بل إن الأسبذيين الذين استوطنوا (هَجَرَ وعُمان) كانت تعبد فرساً يقال له (أسبذ)، وبه عُرفت وإليها أشار طرفة بن العبد في قوله^(٢):

خذوا جذركم أهل المُشَقَّرِ والصِّفَا عبيدَ اسبِذٍ والقرض يُجْزَى من القرض
وأُسبِذٌ مأخوذة من كلمة (أسب)، وهي كلمة فارسية ومعناها (الفرس)^(٣).
وهناك من سَمَّى أولاده بأسماء فارسية فالتَّعمان سَمَّى ولده (قابوسًا) ولقيط بن
زرارة سَمَّى ابنته (دختوسًا)^(٤).

ويظل تأثير الأمم الأخرى في الأفراد أكثر مما هو في الأمة؛ ويتفاوت في درجاته تبعاً لحالات كثيرة.. كالجوار والرحلات والتجارة في السلم، والقتال في الحرب.

وقد كانت فارس أعظم أثراً من غيرها في العرب، وقد ظهر هذا كله في اللفظ والسلوك والعادات، وفي الأدب، والعقيدة عند بعض القوم. فالألفاظ الفارسية تسربت إلى السنة العرب قبل الأعشى الذي وفد على فارس والحيرة، وقبل عدي بن زيد الذي سكن الحيرة وكان مقدماً عند كِسْرَى^(٥). ودخل كثير منها في أبنية العربية حتى غاب أصلها،^(٦) ثم إن كثيراً من ضروب الغناء وأدوات الموسيقى، ومن ثم المغنين والمغنيات مما عرفته فارس عرفه العرب، وعبرت عنه آدابهم. فهناك أخبار كثيرة منها أن النضر بن الحارث كان يفد على الحيرة فيتعلم أخبار الفرس وقصص ملوكها كقصص رستم وبهرام واسفنديار والأكاسرة، ويجلب معه المغنيات إلى مكة، فيدفع بهن إلى كل من رغب في

الإسلام ليضلَّه عن سبيل الله^(٧). فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^٨. وفي هذا المقام روي أن عبد الله بن جدعان كان يملك قينتين فارسيتين تغنيان أهل مكة بغناء النَّصَب، وهو غناء عربي^(٩)، وكان وفد على فارس وأتى بهما.. كما ذُكر أن بشر بن عمر بن مَرْثَد لما هرب من النعمان بن المنذر أحضر معه إلى اليمامة هُرَيْرَةَ وَأَخْتَهَا خُلَيْدَةَ، فَصَدَّحَتْهَا بِالْغِنَاءِ وَاشْتَهَرَتْهَا بِهِ فِي حَانَةِ رَادِهَا الْأَعْشَى^(١٠)، وغيره من الشبان. وهذا كله يدل على تواصل مدني اجتماعي بين العرب والفرس في ميادين شتى، ويفهم من هذا وغيره^(١١) أن التأثر بفارس لا ينحصر بفرد دون فرد أيًا كان، وكيفما عاش، ولا بأي شكل من الأشكال... أفي الألفاظ أم في الغناء، أم في ضروب اللباس والزينة أم أدوات الموسيقى، أم شُرْب الخمر...

وقد حاول الباحثون قديمًا وحديثًا رصد التأثير اللغوي وحجمه ومفهومه في ظاهرة الاحتجاج اللغوي سواء ما كان منه معرّبًا أو دخيلًا (أي ظل على لغته الأصلية) في آخر العصر الجاهلي، أي في عصر الأعشى وجيله^(١٢) ولهذا فالتأليف في لغة الأعشى خاصة وفي أثر الدخيل في العربية عامة ليس جديدًا، ولهذا تُعدّ المهمة لدينا أصعب.

ومن هنا يصبح لزامًا علينا التذكير بأن الأدب الجاهلي باعتباره صورة فنية موازية لحياة أهله وطبيعتها؛ نهل منها لغةً وطريقةً فنيةً، وصورة خالطها أحدهم هنا وهناك لم يكن بمعزل عن التأثر بفارس. وكان بعض الشعراء أعظم تأثرًا بها من بقية الجاهليين وفي طليعتهم الأعشى وعدي بن زيد ولقيط بن يعمر الإيادي؛ علمًا أن بعضهم سكن الحيرة أو وفد إليها وإلى فارس أو سمع بحكاياتها وشاهد أنماط الغناء وخالط المغنيات.

ويظل الأعشى علمًا متفردًا بذلك فهو أكثر تأثرًا ممن سكن فارس والحيرة كعدي بن زيد ولقيط بن يعمر والمنخل اليشكري... وتميز من هؤلاء وغيرهم بأنه ظل بدويًا في كثير من شعره على عظمة ما نهل من حضارة فارس، وظلَّت تراكيبه متينة قوية، وإن تجددت بعض صورته ومعانيه؛ ما حدا بالنقاد والأدباء أن يجلوه ويشهدوا له بالشاعرية فهو في الطبقة الأولى؛ بل هو عند بعضهم أستاذ شعراء الجاهلية؛ إن لم يكن أشعرهم^(١٣). فعدي بن زيد -مثلًا- سكن الحيرة وكان ترجمانًا لكسرى والنعمان؛ وقد ثقل لسانه واختل تركيبه فلم يحتج الناس بشعره؛ والبنية الصوتية والتركيبية إحدى سمات الجملة الفصيحة^(١٤). ولعل لنصرانية عدي واعتداده بها أثرها في عدم التأثر العميق بمدينة فارس وعاداتها ونظام حياتها، على حين عُدَّ الأعشى أكثر تأثرًا بأنماط الغناء الموسيقي؛ وأكثر من استعمال الألفاظ الفارسية في شعره؛ وأشهر شاعر جاهلي عابث يطارد الخمرة والمرأة أينما كانت بغيًا أو حرة، بل هو أعظم من تحدَّث عن الخمرة ووصفها ووصف مجالسها التي عاينها في الحيرة وغيرها... فصدر في ذلك غالبًا من المؤثرات الخارجية وأهمها المؤثرات الفارسية، وعلى الرغم من هذا ظل شعره عربيًا أعراييًا، وإن صقلته الحاضرة، ووسعت آفاقه، وأثَّرت ألفاظه، وطرائقه الفنية... وأمَدَّت معانيه بجملة من الموضوعات.

لهذا كله اخترناه؛ ولهذا علينا أن نوضح هذه المؤثرات بعد أن نُلِّمَّ بتعريف سريع لشخصه ونسبه وما يرتبط بهما، ومن ثم نتوقف عند أشكال المؤثرات الفارسية.

التعريف بالأعشى:

الأعشى هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة.. من بني بكر بن وائل... فهو ضُبَيْعِي قَيْسِي بَكْرِي رَبْعِي نَزَارِي. لُقِّبَ أبوه بقتيل الجوع؛ ولقب هو بالأعشى. وربما قيل: الأعشى الأكبر

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

وأعشى قيس، وأعشى بكر تمييزاً له من الأعشين، كأعشى همدان وباهلة وبني مازن وبني نهشل^(١٥)...

والعشا: سوء البصر من غير عمى، فهو لا يرى بشكل جيد ليلاً أو نهاراً، وقد ذكر بنفسه لقبه في قوله:^(١٦)

فإن تسألني عني فيا ربِّ سائلٍ حَفِيٍّ عن الأعشى به حيث أضعدا
ولهذا كُنِّي بأبي بصير تفاقلاً بشفائه... فعرف به كما عرف بلقب (صناجة العرب)؛ وهو أول من لُقِّب به؛ وربما لُقِّب «صناجة لقوة طبعه وحلية شعره، يخيل لك إذا أنشدته أن آخري نشد معك»^(١٧).

وقد ولد بقرية (دُرْنَى) من أرض اليمامة وذكرها في شعره^(١٨) ومات بمنفوحة باليمامة وقبره فيها بعد أن عاش ثمانين سنة كما قال:^(١٩)

مضى لي ثمانونَ من مؤلدي كذلك تفصيلُ حُسَابِهَا
فإذا كانت وفاته سنة (٧ هـ أو آخرها / ٦٢٩ م) إثر خبر مشهور عن وفادته إلى رسول الله ليعلم إسلامه، ولم يُرد الله له ذلك فرجع إلى بلده فإن مولده يكون نحو سنة (٥٥٠ م).

فالأعشى عاش في عصر نُضج الشعر الجاهلي واكتماله، وأدرك الإسلام ولم يسلم ولم ير الرسول؛ لأن قريشاً وعلى رأسها أبو سفيان تربصوا به في الطريق فخدعوه فحرم نعمة الإسلام، ولهذا لم يتأثر به وإن سمع بالرسول (ص) وبشريعته السمحة^(٢٠).

أشكال المؤثرات الفارسية:

يتضح لنا من سيرة الشاعر ومولده أنه ابن البادية نشأ فيها محباً لقومه؛ وقال الشعر متأثراً بها... ولعله من حسن الطالع أن يعمل مبكراً في التجارة، فراد الأسواق في الجزيرة العربية وغيرها... لهذا وذلك فهو يعشق الحرية كبقية أفراد

● حسين جمعة

جنسه ويكره الذل والخنوع؛ ولكنه يفترق عنهم بحب المغامرة والاعتراب؛ بينما وجدنا البدو يستقرون في منازل ثابتة إذا اطمأنوا إليها في حياتهم وكانت مهياة لعيش أنعامهم.... فإذا وجدوا مكاناً استقروا به مادام يؤمن لهم الطمأنينة والحياة... أما الأعشى فلم يعرف الاستقرار الذاتي أو المكاني.... فطبعه ميال إلى الارتحال والاعتراب؛ ساعده على هذا انغماسه في اللهو والشراب الذي رآه في اليمامة موطن الكرم والنخل... فضلاً عن عمله في التجارة في مقتبل عمره... ما جعله يتوجه إلى كل مكان يلبي نزعته المادية ويروي رغباته الذاتية وشهواته العارمة... ولعل المدن الموزعة آنذاك في الجزيرة كانت عديدة، ولكن الأعشى فضّل الاتجاه إلى اليمن وإلى الحيرة، ورادهما أكثر من غيرهما حتى عُرف بهما وعبر شعره عن ذلك... وكتلتهما كانت تحت حكم فارس، وأماؤها العرب تابعون لملك فارس، وكذلك عُرفتا بمجالس اللهو والشراب... وتبقى الحيرة أكثر تأثيراً في شعره من اليمن، فضلاً عن وجود التأثير السياسي الفارسي المحيط بالأعشى ما جعله ينغمس في حياة متأثرة بالحيرة وسياسة فارس وثقافتها... فمدنيتهما جذبت الناس إليها وخلبت أفئدة الشعراء...

ولذا سنعرض للأثر السياسي، وأثر الرحلات؛ ومن ثم نتوقف عند أثر مدينة (الحيرة) بما تملكه من عمارة ومنتزهات ومجالس اللهو والغناء والشراب... لنستقر أخيراً عند الأثر الثقافي. فنحن نعتقد أن أي أثر منفرد لا يمكن أن يحدث من دون المؤثرات الأخرى فالأثر البيئي ممتزج بالسياسي والمدني والثقافي...

١. الأثر السياسي:

نشأ الأعشى وهو يرى ملك فارس يمتد إلى البلاد المجاورة كالعراق والبحرين وعمان واليمن، بل الشام نفسها في بعض المراحل.... وقد أتيج له تاريخ طويل وحكام أكفيا في نظام الحكم وطبقاته، وأوجدوا أنظمة مكتوبة لتصريف

شؤونه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... لهذا كانوا حريصين على تجارتهم التي تتجه إلى الأسواق في داخل الجزيرة العربية وجنوبها وشرقها... في هجر وعكاظ والشَّحْر واليمن ودَبَا... ولما نشأت بعض الممالك والقبائل تابعة لفارس كالمناذرة أمراء الحيرة، وتميم أمراء عبد القيس وغيرهما ككفهم ملوك فارس بحماية القوافل التجارية، بل إن المناذرة ذهبوا إلى أكثر من ذلك؛ وآخر ملوكهم الأقوياء النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذي حكم الحيرة بين (٥٨٥ - ٦١٣ م) هو المكنى بأبي قابوس، لأنه سمي ابنه باسم فارسي (قابوس). ولما قتله كسرى - في خبر مشهور أدى إلى يوم ذي قار المشهور - ولَّى الملك الفارسي على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي الذي مات سنة (٤هـ / ٦١٨ م)... فالتَّعمان - وإن كان أول من أدخل النصرانية إلى الحيرة في خبر معروف له مع عدي بن زيد؛ بعد أن كانت مجوسية على ديانة فارس - كان كأجداده درءاً حصيناً لفارس في وجه الروم ممثلين بالفساسنة الذين كانوا درعاً لهم، وعنهم قاتلوا المناذرة وغيرهم. وصار النعمان أو غيره سيفاً مسلطاً على القبائل المتمردة يأتهم بأمر الملوك كلما طلبوا منه ذلك... ولا شيء أدل على هذا من يوم الصَّفقة المشهور^(٢١).

فالأعشى الذي ولد ومات باليمامة القريبة من البحرين وعمان والعراق ومن ثم فارس؛ وتجوّل فيها جميعاً لم يغب عن عقله ونفسه صورة ملك الفرس الذي امتدّد ردحاً من الزمان على أطراف من الأرض العربية. وهذا الملك أثره صحيح وحقيقي؛ ظهر في حياته أولاً وفي شعره ثانياً؛ وإن كانت صورته السياسية أقل بروزاً من صورته الاجتماعية لما يتصف به الأعشى من حب للهو والشراب والغناء والابتعاد عن السياسة... وليس بالضرورة أن يكون هذا الأثر مدعاة للشعر الجاهلي كله، وإن صدق على بعض منه كما انتهى إليه الدكتور طه حسين^(٢٢).

ومن صور الأثر السياسي في شعر الأعشى، صورة مُلك كسرى العضوض القوي... فمع عظمة هذا المُلك وقدرة حكامه وشهرتهم فإنهم لم يستطيعوا أن

● حسين جمعة

يخلدوا؛ فكلهم صاروا مادة للموعظة والعبرة للناس جميعاً. فالملك ساسان، وكسرى (شهنشاه) أي ملك الملوك الذي تمتع طويلاً بملكه وبحياته لم يخلد فيقول:

فما أنت إن دامت عليك بخالدي كما لم يُخلد قَبْلُ سَاسَا وَمَورُقُ
وكسرى شهنشاهُ الذي سار مُلكُهُ له ما اشتهى راحَ عتيقُ وزنبقُ

فنحن لا يمكننا أن نتغافل عن اطلاع الأعشى على تاريخ ملوك الفرس ومعرفة أخبارهم؛ وهو ما يتحقق لدى العديد من الشعراء. أيضاً. كما ورد عند عدي بن زيد وغيره. (٢٣).

وهذا يدل على التواصل المعرفي والتاريخي بين العرب والإيرانيين منذ القديم... وكذلك لا يغيب عن بالنا الإشارة الإيحائية العظيمة للصور الشعرية التي تؤكد عناصر الالتقاء اللغوي والاجتماعي بما دلّت عليه كقوله السابق الذي عبّر فيه عن شرب الراح؛ والعناية بالأزهار والأوراد... وهي مما عرفه الأعشى في الحيرة وبلاد فارس...

ومن هنا ندرك أنّ حديث الأعشى عن حرب ذي قار التي جرت وقائعها في أواخر العصر الجاهلي ليس إلا وقفة الإنسان مع ذويه وأهله؛ ولكنه طالما أنذر من عواقب الحرب، ونبه على شرورها ولاسيما إذا وقعت بين الجيران كالعرب والفرس...

لهذا جاءت دعواته المتكررة إلى كسرى برسائل شعرية ينذر من مغبة الاعتداء لأن القوة ليست وحدها السبيل إلى الانتصار^(٢٤). فالأعشى يؤثر السلم والمودة بين العرب والفرس؛ لكنه سيقف مع قومه إذا نزل بهم أمر صعب... لهذا وجدناه يرحب بوفادة قيس بن مسعود على كسرى^(٢٥).

وليس هناك شك في أنّ الأعشى يفتخر بقومه وانتصاراتهم^(٢٦) ولكنّه يظُلُّ

أبداً مشدوداً إلى عدم اعتداء أحد على الآخر ولاسيما العرب والفرس، لأنه طالما تردد على فارس ونعم بحياته فيها... وهذه هي حال المحب لقومه ولجيرانه... فهو يكره الظلم من أي طرف كان...

ولعل خبرته بملوك فارس وسياستهم الحربية وإعدادهم للخيل وتقاليدهم في القتال من أبرز معارفه التي تحدث عنها. وسياسة الملوك عامة في ذلك تختلف على نحو كبير عن سياسة الناس العاديين في إعداد خيلهم للمعركة. وهذا ما عبر عنه في وصفه لفرس النعمان بن المنذر المعروف باسم (اليحُموم) فقال: ^(٢٧)
ويأمرُ لليحُموم كُـلَّ عَشِيَّةٍ بَقَّتْ وتَغْلِيقٍ، وقد كَاد يَسْتَقُّ
يُغَالِي عليه الجُلُّ كُـلَّ عَشِيَّةٍ وَيُزْفَعُ نُقْلاً بِالضُّحَى وَيُعَرَّقُ

وقد عاب النقاد عليه هذه الصفة لأنها لم تعرف عند العرب في وصف خيل الحرب؛ ولكن ابن قتيبة دافع عنه فقال: «ولست أرى هذا عيباً؛ لأن الملوك تعد فرساً على أقرب الأبواب من مجالسها بسرجه ولجامه خوفاً من عدو يفاجئها أو أمر ينزل، أو حاجة تعرض لقلب الملك فيريد البدار إليها، فلا يحتاج إلى أن يتلوم على إسراج فرسه وإلجامه... فوضع الأعشى هذا المعنى ودل به على ملكه وعلى حزمه» ^{٢٨}.

فالعرب تمادحوا بالقيام على الخيل، وربطوها بالقرب من بيوتهم، ولكنهم أراحوها كل عشية من الجل واللجام... لأن حروبهم كانت تتم بالنهار غالباً ^(٢٩)... على حين أن سياسة الملوك تغاير ذلك... وهذا ما نفذ إلى إدراكه الأعشى فنقل صورته إلى شعره بطريقة ومعنى، مما يدل على أثر السياسة الحربية في تحولات شعره الفنية. ويستدل المرء بذلك أيضاً على نمطية التواصل الحضاري بين العرب والفرس فهي ليست نمطية طاغية؛ فملوك الحيرة يتمتعون باستقلالية خاصة ولهم شؤونهم العربية الخاصة. وتتجسد بأشكال كثيرة كسياستهم في اجتذاب

● حسين جمعة

الشعراء إليهم؛ وعلاقاتهم الاجتماعية كالزواج. وذلك أشهر من أن يتوقف المرء عندها... فقد أرادوا الدعاية لأنفسهم، وليكون الشعراء أبقاً لهم والثناء على صنائعهم، ولئلا يتجهوا إلى أعدائهم الغساسنة مثلاً. وكان الأعشى واحداً من الشعراء الذين مدحوا ملوك الحيرة، وإن لم يكن الأشهر بينهم كالنابغة الذبياني وطرفة ولييد والمتلمس والحارث بن حلزة... ومما تفرد به ملوك الحيرة في هذا الشأن أنهم دوّنوا الأشعار التي قيلت فيهم، ووضعت في قصورهم^(٣٠)... فملوك الحيرة وإن كانت مدينتهم فارسية في وجوه كثيرة أهمها الوجه السياسي، لكنها في الوقت نفسه تعيش في نسغ الحياة العربية.

ومن هنا نستدل على أثر الحيرة في شعر الأعشى على كثرة تردده على اليمن وأمراء الجنوب، وهو ما نراه واضحاً في شعره. فرحلاته لم تكن مخصوصة باليمن والشام وعمان... وإنما كانت إلى الحيرة بالدرجة الأولى، فهي لا تقل عن رحلاته إلى اليمن وكتلتاهما كانت تابعة لفارس^(٣١).

٢. رحلاته وتجوّاله

الأعشى شاعر جوال، رأى في الرحلات إلى أسواق العرب مكسباً لتجارته؛ ثم رأى في رحلاته إلى الأمراء والملوك كسباً للمال، وهو أول من سأل بشعره وجعله مهنة لاستدراار عطاء الممدوحين^(٣٢). فالمال وسيلته لاقتناص اللذة والحصول على الشراب؛ لا يتوانى في بذله من أجلهما. فحيثما لاح له المال توجه إليه؛ ولهذا نحن نُصحح له أبياته التالية لذلك السبب ولا نرى فيها ما رآه الدكتور طه حسين^(٣٣) ومنها:^(٣٤)

وقد طُفْتُ للمال آفاقَهُ عُمَانَ فحمص فأوريشِلمِ
أتيتُ النجاشيَّ في أرضه وأرض النبيط وأرض العجمِ

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

فنجرانَ فالسَّرْوُ من جَمَيْرٍ فأَيِّ مَرامٍ له لم أرُ
ومَن بعدِ ذاكِ إلى حِزْموتٍ فأوفيتُ هَمِّي وحيناً أهُم

والتجوال لم يكن في سبيل المال وحده كما يقرّ هو بذلك بقوله: (٣٥)

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافعٌ وليدًا وكهلاً حين شبتُ وأمردا

وإنما كان أيضًا تزجية لهوميه، وإشباعًا لشهواته كما سيظهر من شعره وتصريحه به في أنماط كثيرة... ويقر الدكتور طه حسين برحلاته إلى اليمن والحيرة وينفي أن يكون اتجه إلى كسرى أو الشام وغيرها (٣٦).

أما رحلاته إلى بلاد فارس، ووفادته على كسرى فلا تمتنع لدينا عقلاً ولا منطقيًا؛ ولسنا ممن يرى ردها (٣٧)، ولا نشك في أنها حدثت قبل ذي قار. ويؤيدنا في هذا قول الشاعر (٣٨):

قد طفت ما بين بانقيًا إلى عدنٍ وطال في العُجم ترحالي وتسياري

كما يؤيدنا الأصمعي وابن قتيبة وهما راويان ثقة، وكلاهما أكد وفادته على كسرى في خبر حكاة ابن قتيبة قائلًا: «وكان الأعشى يفد على ملوك فارس ولذلك كثرت الفارسية في شعره كقوله:

فلاشَرَبَنَّ ثمانِيًا وثمانِيًا وثمانَ عشرةَ واثنتين وأربَعًا
من قهوة باتت بفارسَ صَفْوَةً تدعُ الفتى مَلِكًا يميلُ مُصَرَّعًا
بالجُلَّسانِ وطَيِّبِ أَرْدَانُهُ بالوَنِّ يَضْرِبُ لي يَكْرًا لِإِضْبَعًا
والنَّايِ نَزْمٍ وَبَرْبِطِ ذِي بُحَّةٍ والصُّبْحِ يَبْكِي شَجْوَهُ أن يُوضَعًا

وسمعه كسرى يومًا ينشد، فقال: من هذا؟ فقالوا: أسروذكوي تازي؛

أي (مغني العرب)؛ فأنشد (٣٩):

أرقتُ وما هذا السهاد المورقُ وما بي من سُقمٍ وما بين مَعشِقُ

فقال كسرى: فسروا لنا ما قال!! فقالوا: ذكر أنه سهر من غير سُقم ولا

● حسين جمعة

عشق! فقال كسرى: إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص!^(٤٠).
فالمترجمون فسّروا الكلام بناء على ما فهموه؛ فإذا آمنّا بأن الترجمة خيانة لمعنى
النص الأصلي تيقنًا بأن ابن قتيبة يستدل على صحة الوفادة ورحلات الأعشى إلى
بلاد فارس بكثرة الألفاظ الفارسية. ومن ثم نجد أن هذا الخبر رواه عدد من
الرواة الثقات بعده وتابعهم في ذلك بعض المحدثين^(٤١).

وعلى الرغم من أنّ طبقات الديوان لم ترو الأبيات الأربعة السابقة فإن رواية ابن
قتيبة تعد من الأهمية بمكان... فالألفاظ الفارسية أكثر دورانًا في شعر الأعشى
من أي شاعر آخر^(٤٢). وهذا ما سوف يتّضح مما يأتي كله... فضلًا عن أن الأبيات
السابقة لها ما يماثلها تمامًا في قصيدة على روي الميم، سنعتمد عليها بعد قليل. أما
ما يتعلق بوفادته على كسرى فإن المرء يعتقد بحدوثها لشهرة هذا الملك واعتقاد
الأعشى بأنه سينال خيرًا وفيرًا منه. ونعتقد بأن إجابة كسرى وحرمانه الأعشى
لعطائه وقع بسبب تفسير المترجمين للمعنى الظاهري الذي يعبر عنه الشعر، وهم
معدورون في ذلك لأنهم لا يعرفون طرائق العرب الفنية ولغتهم المجازية...

وإذا كان الأعشى قد حرم نعمة العطاء وهو الشغوف به فإنه اقتطف من
رحلاته إلى فارس كثيرًا من الصور ونقلها إلى شعره؛ فحدّثنا عن ولع أبنائها بالخمير
وشهرتهم بصناعتها، واعتنائهم الشديد بالأزهار والحدائق؛ واتقان كثير منهم
لأنماط من الغناء والعزف على أدوات الموسيقى التي نقلها بأسمائها الفارسية.
فالجلسان: الورد الأبيض، أو قبة ينثر عليها الورد والريحان، والونّ: آلة وترية،
وكذلك الناي نرم، ولعله يشبه العود، والبُرْبُط هو العود ومعناه صدر الببط، والصنج
آلة موسيقية على شكل دوائر توضع فيه الأصابع عند العرب، وهي آلة وترية عند
الفرس.

فالشاعر عرض في شعره لرحلاته ومشاهداته فكان مؤرخًا فنيًا أولًا، وثانيًا
قدّم لنا مادة فنية أغنت موضوعاته وطرائقه الأسلوبية.

ويبدو أن الأثر الأهم في ذلك كله يكمن في الحيرة ذاتها؛ ولعل أول ظهور لها على مسرح التاريخ كان في عهد سابور بن أردشير أو أبيه نحو سنة (٢٤٠ م). وقيل: إنه أعاد بناءها ومن ثم صار عمرو بن عدي أول أمير عربي تابع له^(٤٣)، ومن ثم بنى النعمان بأمر من يزيد جرد (الخورنق) ليسكن فيه ابنه (بُهرام)^(٤٤). وأصل اللفظ فارسي (خورنكاه) كما بُني فيها قصر السدير، وأصل لفظ (السدير) فارسي؛ ولعله مكوّن من (سه: ثلاث، ودله: القباب) ومعناه: ذو القباب الثلاث^(٤٥) وكلاهما ورد في شعر الأعشى وغيره^(٤٦).

٣. أثر مدنيّة الحيرة في شعر الأعشى:

لا شيء أدعى إلى إبراز شخصية الإنسان ولا سيما الأديب من أن يتغذى أدبه من معين الآخرين وبيئاتهم وثقافتهم وفنونهم وحياتهم. ولعل تأثر الأعشى بفارس ومدنيّتها، وما أنتجته من ضروب السياسة والحياة الاجتماعية والعمرانية قد أخذ يتضح لنا، فضلاً عن الجوانب الثقافية. ولما كانت الحيرة صنّعة فارسية بالدرجة الأولى فإن مدنية فارس قد انتقلت إليها؛ وصارت قبلة الشعراء لما عرف عن ملوكها من إكرام لهم واجتذابهم. فالحيرة جزء لا يتجزأ من مدنية فارس، وقد تولدت من رحم تقدمها، ورقى فنونها وعاداتها.... وازدهار عمارتها من دون أن ننكر عليها جملة من السمات العربية.

فالفرس كانوا مغرمين بالأزهار وأصناف الورد، واعتنوا بها، وربّوها مع جملة من ضروب الرياض الأخرى؛ ومنهم من استحم بالماء المعطر^(٤٧).

ولهذا وجدنا الحيرة تحذو حذو فارس، ويتضح لنا هذا من شعر للأعشى مدح به إياس بن قبيصة (واليها الأخير) فنقل لنا في أبيات أربعة إحدى عشرة زهرة؛ بعد أن كان سجل ظاهرة انتشار حانات الخمر وكيفية تقديمها للشاربين. وهذا كله ورد في الأبيات التي سبق ذكرها. فقال أيضاً^(٤٨):

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

ما عدا النمط الإيقاعي التقسيمي والحركي في داخل البنية التركيبية للقصيدة^(٥٢). وهذا يدفعنا إلى القول: إن معرفة الأعشى بفارس تتجاوز الأثر المدني إلى معرفة اللغة الفارسية دلالة. في ضوء ما تقدم ثبت لنا أن مدينة الحيرة بوجهيها الفارسي والعربي كانت أهم مصادر مُتَعِه؛ ومن أهم المؤثرات في شعره إن لم تكن الأعظم فيه. والحيرة نفسها في كلِّ ما قامت عليه تمثِّل وجهًا متقدمًا للثقافة اللغوية التي أثَّرت هي الأخرى في شعر الأعشى، وهي في الوقت ذاته تؤكد عظمة الاتصال الحضاري بين العرب والفرس في العصر الجاهلي. فالحيرة صهرت في نسيجها الاجتماعي عادات فارس في صميم النسق الاجتماعي العربي وكذلك فعلت في المؤثرات الثقافية الأخرى. وحين أتيح لهذا الاتصال أن يتعمق بمجىء الإسلام ظهرت الحضارة الإسلامية على أيدي أبنائها كلهم بصورة عظيمة وفاعلة.

٤. الأثر الثقافي

تعدُّ مجالس الغناء واللهو، وما يتصل بها من موسيقى وأدوات واحدة من أشكال الثقافة... وكذلك العمارة وطرائق تنظيم الرياض وزراعة الأشجار والأزهار والاعتناء بها واستخلاص العطر من بعض منها. ومثل ذلك يقال في الطعام وألوانه والشراب وأدواته و كيميته، والحلي وصنوفه، والأثاث وأشكاله، والقوارب والسفن وطرائق صناعتها وموانئها التي تبحر منها أو تستقر فيها... والصناعات الأخرى الكثيرة والمتنوعة^(٥٣).

وما من أحد ينكر أنَّ مدينة فارس، وما كانت عليه الحيرة من غلبة هذه المدنية ولا سيما مجالس الخمر والغناء على غيرها تعد الأثر الأهم في شعر الأعشى. وسنلمُّ ببعض الصور الثقافية الأخرى؛ دون أن ننسى أثر الأيام والحروب بين فارس وغيرها في شعر الأعشى كوجه من وجوه الثقافة التاريخية.

● حسين جمعة

وقد أدركنا أنّ الوجه الأسبق أوضح في حياة الأعشى وشعره؛ بينما صور الثقافة الأخرى أوضح في شعره لفظاً^(٥٤) ومعنى. وهذا كله يدلُّ على أنّ الشاعر الأعشى كان متفتحاً ذا عقل مستنير؛ اقتطف من الثقافات التاريخية للشعوب، والحياة المدنية التي تعيشها مادة أثرت موضوعاته وجددت في طرائقه الفنية. وأكد بهذا أن اللغة العربية قادرة على صهر أي لفظ أجنبي في قولها إذا توافر لها أبناء مبدعون. فالمعرب أو الدخيل من الألفاظ الفارسية قديمة في الشعر الجاهلي قبل الأعشى. فالسراب والمسك والخورنق والخذق والدخارص وغيرها مما ذكره الأعشى ألفاظ كانت معروفة في القديم، وصارت جزءاً من بنية العربية^(٥٥).

ولكن هذا لا يعني أنه لم يستعمل ألفاظاً فارسية أخرى لم نجدها في شعر غيره كما ورد كثير منها من قبل وكما هي عليه كلمة (ديسق والدشت والتباين والقنديد والدَيابوذ والأرندج والملاب والتامورة...) فضلاً عن أسماء الأماكن بلفظها الفارسي مثل (سَيْلَمون وصَرِيفون)^(٥٦)؛ بل إن المرء ليزعم أن ما دخل شعر الأعشى من الألفاظ الفارسية لا يقل عن منّي لفظ.

وهذا يجعلنا نعتقد أن التأثير اللغوي في شعر الأعشى أعظم بكثير من ظاهرة التأثير الخارجي، ونزعم بأنه كان يعرف كثيراً من الألفاظ دلالة وتصرفاً عن وعي ودراية وكأنه أحد أبناء الفارسية. ويؤكد هذا أن الأثر اللغوي لا ينحصر في موضوع دون آخر وإن برز بشكل ملحوظ في موضوع الغزل والخمر... ومن يتأمل شعره يدرك أن عدداً من الألفاظ الفارسية قد استعمل في صفة الصحراء كقوله^(٥٧):

وبيداء يلعبُ فيها السّرا بُ لا يهتدي القوم فيها مسيرا

ويصف الثور الوحشي فيصفه وكأنه لبس ديابوذاً فارسياً منسوجاً على نيرين وتسربل بالأرندج؛ (وهو الجلد الأسود) فيقول^(٥٨):

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

عليه دَيَا بُؤْدُ تسربل تحته أَرْنُدَجِ إسكافٍ يخالط عِظْلِمَا

فالأثر اللغوي مادة ثقافية غنية أمدت شعره بأشكال لغوية وطرائق فنية عظيمة أشرنا إلى كثير منها من قبل... فهو حين يحدثنا عن اللباس يعرض للدمقس والتباين والديباج وغير ذلك كقوله^(٥٩):

كَأَنَّ ثِيَابَ الْقَوْمِ حَوْلَ عَرِينِهِ تَنَابِينُ أَنْبَاطٍ إِلَى جَنْبِ مُخْصَدِ

فالتباين لفظ فارسي مكون من (تن بان)، ومعناه حامي الجسم، وقد ورد في معرض صفة أسد افترس أقواماً فترى ثيابهم الممزقة القصيرة حول عرينه كأنها تباين النبط والفرس... وهذا البيت من قصيدة يمدح بها النعمان.

وكان كسرى قد حبا هُوذة بن علي التاج والحلي والديباج فأبى الأعشى إلا أن يؤرخ لذلك ويمدح هُوذة بصفات الملوك في لباسهم وعزتهم فقال^(٦٠):

مَنْ يَلْقَى هُوذَةَ يَسْجُدُ غَيْرَ مُتَّيِّبٍ إِذَا تَعَصَّبَ فَوْقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا
لَهُ أَكَالِيلُ بِالْيَاقُوتِ زَيْنَهَا صُورًا غَهَا لَا تَرَى عَيْنًا وَلَا طَبْعَا
وَكُلُّ زَوْجٍ مِنَ الدِّيَابِجِ يَلْبِسُهُ أَبْوَ قَدَامَةَ مَحْبُوبًا بِذَلِكَ مَعَا

فهذا النمط من اللباس والتزين بالحلي من خصائص ملوك فارس وقلدهم فيه من العرب مَنْ كان تابعاً لهم غالباً، ونقل الأعشى إلينا ذلك كله في شعره^(٦١).

وتبقى الثقافة التاريخية ولا سيما أيام فارس وحروبها مادة غنية استقى منها الأعشى صورته الشعرية، فأدخلها في موضوعاته وأغراضه؛ وربما عرضها عرضاً يدل على فلسفته في الحياة والكون.... فقد استعملها في صميم أغراضه الشعرية مدحاً أو فخرًا أو هجاء^(٦٢).

فهو حين مدح رجلاً من كنده يقال له ربيعة بن حَبُوة وصف لنا وصول الفرس إلى اليمن ونزولهم في قصر رِيْمَانِ أحد قصور ظفار القديمة فقال^(٦٣):

يَا مَنْ يَرَى رِيْمَانَ أُمَّ سَى خَاوِيَا خَرِبًا كِعَابُهُ

● حسين الجمعة

من سُوقَةٍ حَكَمٍ وَمِنْ مَلِكٍ يُعَدُّ لَهُ ثَوَابُهُ
بَكَرَتْ عَلَيْهِ الْفُرسُ بَعْدَ حُدُودِ الْحَبَشِ حَتَّى هُدَّ بِابْنِهِ

وأرخ لمعركة (ساتيدما) في مدحه لإياد بن قبيصة الذي وجهه كسرى أو برويز لحرب الروم على رأس جيش ضمَّ عرباً وفرنساً فانتصر على الروم؛ فقال^(٦٤):
كم رأينا من أناسٍ هلكوا ورأينا المرءَ عمراً بطالاً
وهرقلاً يوم ذي ساتيدما من بني بُرجانٍ في البأس رجح
صَبَّحُوا فارسَ في رَأْدِ الصُّحَى بَطْحُونٍ فخمّة ذاتِ صَبْحِ
فتفانوا بضرابٍ صائبٍ ملاً الأرضَ نجيعاً فسَفَحَ

ويتحدث في معرض مدحه لقيس بن معديكرب عن قصة إغارة (سابور) -وهو شاهبور في الفارسية- على مدينة الحَضْر (الشمس) التي بناها الصَّيْزَن؛ وهو رجل من قضاة كان ملكاً على الجزيرة ثم امتد ملكه إلى الشام والعراق وبنى مدينة الحَضْر، واتخذها مركزاً للإغارة على فارس؛ مما جعل شاهبُور بن هرمز يدبر له مكيدة ويقضي عليه^(٦٥) فأرخ الأَعْشى لهذه الحادثة وكيف استطاع سابور القضاء على مدينة الشمس ومُلِك الصَّيْزَن بن معاوية بن العبيدة، فكان مثلاً للعبرة؛ فقال مخاطباً ابنته في معرض القصيدة^(٦٦):

ألم تَرِي الحَضْرَ إِذْ أَهْلُهُ بِنُغْمِي، وهل خالِدٌ مَنْ نَعِمَ!!؟
أقامَ به شاهبُورُ الجنو دَ حَوْلِينَ تضرب فيه القُدْمُ
فما زاده رَبُّهُ قوَّةً ومثلُ مُجاورِهِ لم يُقِمِ
فلما رأى رَبُّهُ فعَلَهُ أَتاه طرورقاً فلم يَنْتَقِمِ

فالصَّيْزَن حاول استرجاع الحَضْر فما أفلحت حيله فقاتل حتى مات كما يقول الأَعْشى:

وللمَوْتُ خَيْرٌ لِمَنْ ناله إِذَا المَرءُ أُمَّتُهُ لِمَ تَدُمُ

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

فملوك فارس والروم وغيرهم مادة للعبارة في طول ملكهم وزواله، وفي حروبهم وأيامهم، وقد أجاد الأعشى في وصف جيوش كسرى وتابعيه.... ووصف الفرسان وخيلهم، ولم يهمل الافتخار بقومه في معرض حديثه عن حرب ذي قار؛ كقوله^(٦٧):

وَجُنْدُ كَسْرَى غَدَاةَ الْجِنُوصِ بَحَّهِمْ مَنَا كَتَائِبُ تُزْجِي الْمَوْتَ فَاَنْصَرَفُوا
جَحَاجِحٌ وَبَنُو مُلْكِ غَطَارِقَةَ مِنْ الْأَعَاجِمِ فِي آذَانِهَا النَّطْفُ
إِذَا أَمَالُوا إِلَى النَّشَابِ أَيْدِيَهُمْ مَلْنَا بِيَيْضٍ فَظَلَّ الْهَامُ يُحْتَطَفُ

وعلى الرغم من أن الأعشى شاعر الجمال والشهوة العارمة والخمر المعتقدة فهو أيضًا ذو قدرة بارعة على وصف القتال والمقاتلين، ومؤرخ جيد لحروب كثيرة وأيام كانت للفرس مع الروم ومع العرب كيوم الصَّفَقَةِ^(٦٨) وذي قار^(٦٩) وغيرها^(٧٠)، مستفيدًا في ذلك من ثقافته الحربية التاريخية.

لقد كان الأعشى خبيرًا بحياة فارس وتاريخها؛ عرف ملوكها وذكرهم بالأسماء الصريحة، وكذلك قادتهم وفرسانهم... وصور معاركهم، وجعل صفاتهم مدار تشبيه ومماثلة للممدوح في بعض شعره^(٧١).

وحيثما تأكد لنا أن الأثر الثقافي قد تجلى بمدينة فارس سلمًا، وحياتها العسكرية حربًا تبيين لنا أن اتصال الأعشى بهما جعله أكثر تأثرًا في شعره من غيره، وأكثر تطويرًا لنمطه الشعري، كما وجدنا عذوبة في الأسلوب، ورقة ووضوحًا في الألفاظ مبتعدًا عن التعقيد والغموض. فقد جنح إلى الواقعية والبساطة، واستعمل الأوزان المعبرة عن ذلك...

ولم يكتف بهذا بل نراه يغير في بنية القصيدة، فالشكل المعماري لبناء المقدمات تأثر أيما تأثر بحياته وغلب عليها المقدمات الغزلية العابثة والمقدمات الخمرية، على حين كانت المقدمات الطللية وفي ضوء منهج ابن قتيبة^(٧٢) هي

المعتمدة غالبًا في القصيدة الجاهلية المركبة.

وهنا قد يتبادر إلى ذهن أحدنا سؤال: أين الشعر، أو الأدب في كلّ ما سبق عرضه عن ظاهرة تأثير فارس في شعر الأعشى؟

والإجابة تنبع من صميم العرض السابق؛ فنحن لم نجد تأثيرًا أدبيًا لفارس في شعر الأعشى إلا من خلال المرويات، فقد تركز الأثر بالمدنيّة والحروب والسياسة ونظام الملك والعمران والغناء، وبعض الأخبار وقصص الأكاسرة على مدار عهد طويل. ففارس تملك كتبًا في شؤون الحكم ومراتب الحكام، وتصريف أموال الدولة وأخبار أيامها وبعض عقائدها ككتاب (زرادشت) ^(٧٣)، وكلها كانت مادة للتفاعل... ولا بأس هنا أن نشير مرة أخرى إلى أن بهرام جور بن يزدجرد الأول (٣٩٩-٤٢٠م) بعث به أبوه إلى النُّعمان (ملك الحيرة) الملقب بالأعور (٤٠٣-٤٣١م) فأنشأه نشأة عربية وقيل: إنه قرض الشعر العربي الموزون، وكذا خرُخُشرو ^(٧٤).

ومن هنا يمكن أن نطرح بعض الآراء والنتائج.

فهذا الخبر يؤكّد أنّ الشعر الموزون المقفى الذي يماثل الشعر الجاهلي غير معروف لدى فارس؛ وإن كان لا ينفي وجود أدب من نمط ما بالفارسية. فأول شاعر فارسي نظم على أوزان الخليل كان في العصر العباسي وهو الشاعر المعروف (رودكي) وظهر بعد عصر البحتري، على اشتهاار الخطابة بين يدي الملوك عند فارس منذ القديم ^(٧٥).

وبهذا يمكننا أن نتوسع في مفهوم كلمة الأدب؛ لنجعل الأخبار المنقولة شفاهًا عن الأكاسرة، وما كتب حول بلاطهم أدبًا، فالجملة اللغوية ولا سيما المغناة -لأي أمة كانت- ذات بنية إيقاعية جمالية في حركاتها وسكناتها... وكذا قيل عن النبرات الإيقاعية في الأَفستا ^(٧٦). وإننا نؤكد مرة أخرى أن الأعشى تأثر بإيقاعات الغناء وألحان الموسيقى، وبجملة من الأخبار الشفاهية الفارسية، وكلها أبرزت قيمة التفاعل بين العرب والفارس؛ وإن لم يعرف الفرس شعرًا كالشعر الجاهلي...

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

فإيقاعات الشعر العربي وأوزانه انبثقت من صميم التطور الأدبي التاريخي للصورة اللغوية التعبيرية عند العرب الذين عرفوا أوزان الهزج والرمل والخفيف والمتقارب بعد أن عرفوا السجع^(٧٧). ولعل وجود بعض الإيقاعات الحركية في الجملة الفارسية لا يجعلها تعرف الهزج أو المتقارب كما عرفه العرب؛ فضلاً عن أن اللغة الفهلوية قد اندثرت، بل لا وجود للمؤلفات أو النقوش حتى الآن في هذا المجال.

من هنا نرجح أن فارس لم تعرف النمط الشعري الموزون الذي عرفه العرب؛ وإذا كانت قد عرفت بعض القصص عن ملوكها فهذه القصص دُوِّنت في القرن الرابع الهجري على يد أبي القاسم منصور الفردوسي في ملحمة فارس الكبرى (الشاهنامه) وقد ولد نحو (٣٢٩هـ / ٩٤٠م ومات ٤١١هـ / ١٠٢٠م) وألَّفها في الثلاثين الأخيرة من حياته، وكان قد كتبها للسلطان محمود الغزنوي^(٧٨)، علماً أن التدوين المتأخر لا يعني عدم وجود أدب من نوع ما في القديم. ومهما يكن من أمر الاستشراق وما قيل عن الشعر الفارسي بالمعنى الاصطلاحي لما هو شائع للشعر العربي؛ فهو غير معروف للفرس في الجاهلية^(٧٩). وهذا لا يمنع على الإطلاق أن ندخل الأخبار المروية عن البلاط وقصصه تحت اسم الأدب القصصي الشفاهي.... أمّا الشعر بكلِّ معاييرهِ وخصائصه الفنية فهو - على الأرجح - غير معروف في الأدب الفارسي إلا في العصور الإسلامية منذ العهد العباسي...

وإذا كان هذا كله لا يقدر بحضارة فارس لأنها كانت الأغنى من غيرها في وجوه مدنية أخرى، وهي التي قدّمت للعرب معطيات غنية على الصعد السياسية والاجتماعية والفكرية فإننا نثبت جملة من الأمور، منها:

أولها: أن تجربة الأعشى الذاتية والموضوعية - وفي ضوء ظاهرة التأثر بمدنية فارس وثقافتها وسياستها - كانت تجربة غنية بصورها الجمالية مبنًى ومعنى. فقد جدد في صور الألفاظ وفي بناء القصيدة، وفي موضوعاتها دون أن يذوب ذوباناً مطلقاً في مدنية الآخر وشخصه.

● **حسين جمعة**

والأعشى يعدُّ في طبيعة الشعراء الجاهليين الذين نقلوا الصور الواقعية لمجالس الغناء واللهو بشكل قصصي جذاب يحاكي الواقع إن لم يكن أفضلهم... وهو متفرد منهم بكثرة مطالع القصائد التي تعبر عن حياته العابثة، فبدأها بالغزل أو الخمر، فضلاً عن تأثر البناء الحركي الإيقاعي الداخلي للقصيدة وشغفه بالأوزان الخفيفة الرشيقة. وبهذا كله « كان الأعشى أسير الناس شعراً، وأعظمهم فيه حُلاً، حتى كاد يُنسى الناس أصحابه المذكورين معه »^(٨٠).

ثانيها: أنَّ الأعشى يجسِّد بوضوح عظمة اللغة العربية وحيويتها، وقدرة أساليبها على استيعاب أيِّ نمط فني ولغوي وثقافي يجاورها أو يدنو منها... فاللغة العربية أخذت ألفاظاً وعادات وفتوناً من فارس وغيرها ولكنها صهرت ذلك كله في قوالها وموضوعاتها. وإن حافظت على أصول غريبة أخرى لم يكن هذا ليضيرها وإنما صار جزءاً منها... وحينما أكد لنا الأعشى أنه شاعر مبدع كثير التصرف في ألفاظه وأساليبه حقق لنا صفة ابن اللغة المبدع الذي يضيف إليها طرائقه فتغنى بها. فالشرط الأعظم للغتنا أن يتوافر لها أبناء مخلصون... ولا شيء أدل على هذا من مرحلة الأعشى؛ في أواخر العصر الجاهلي؛ وبعد التطور الكبير للعصر انتهى على يد الشعراء الكبار إلى حالة من النضج عظيمة.

ثالثها: أنَّ شعر الأعشى في صور تأثره المتعددة بفارس ومدنيتها وثقافتها أوضح بما لا يقبل الشك أن الاتصال بين العرب والفرس إنما هو اتصال حضاري قائم على تبادل المدنية والثقافة... دون أن يطغى شكل على آخر... فالممالك العربية (الحيرة) التي كانت تابعة في سياستها العامة لفارس لها استقلال ذاتي وحيوة خاصة بها... نابعة أحياناً كثيرة من الانتماء العربي لملوكها ومن الحياة العربية... إذ ظلَّ الاحترام أصلاً قائماً للعلاقة بينهم وبين أكاسرة فارس؛ وقلَّ أن حدث طغيان من الأكاسرة على الحيرة أو غيرها من الإمارات العربية التابعة للفرس... وإذا حدث فلأمر عارض، وسرعان ما يزول.

فالعلاقة بين العرب وفارس علاقة حضارية راقية أكدتها عظمة التلاحم الذي تم بينهما يوم جاء الإسلام... فصنع منهما أمة واحدة قدمت للحضارة الإنسانية أعظم إنجاز ثقافي وحضاري، وصار أبناء فارس جزءاً من الثقافة الإسلامية العربية ألفوا بها فأبدعوا وفاقوا بها إخوانهم من العرب....

الهوامش:

١. طبقات فحول الشعراء ٢٤/١، وانظر العقد الفريد ٦/٦ والخصائص ٣٨٦/١.
٢. ديوان طرفة بن العبد (صادر) ٦٦ ورواه الشنتمري (... بني عمنا والقرض نجزيه...)
- انظر الديوان ٧١ وفتوح البلدان ٨٩ والحيوان في الشعر الجاهلي ٢٠٤.
٣. اللسان (أسيد).
٤. اللسان (دخدنس، قيس) وانظر الأغاني ١٤٢/١١ و١٤٤ و١٤٥.
٥. انظر الشعر والشعراء ٢٢٥/١ وتاريخ الطبري ١١٥/٢ وفجر الإسلام ١٢ و١٧ و١٨ والبيان والتبيين ١٩/١-٢٠.
- وفقه اللغة ٣١٤ و٣١٨ والأمثال في النثر العربي القديم ٢٨-٣٠.
٦. تاريخ الطبري ١١٥/٢ ومروج الذهب ٩٦/٢ وأثر الدخيل ١١٦ و١١٧ والأعشى (التونجي) ٥١٧.
٧. انظر السيرة النبوية ٣٢١/١ والكشاف ٢٢٩/٣ و٢٣٠ ومروج الذهب ٨١/٢ و٨٥ و٩٠ وبعدها: والكامل في التاريخ ٢٧٤/١ و٢٧٧ والشاهنامة ٩٥ و١١٣ ودراسات في الشاهنامة ٣١.
٨. لقمان: آية: ٦.
٩. اللسان (نصب) والأغاني ٣٢٧/٨ و٣٢٧ والقيان والغناء ٨٢ و٢٧٠.
١٠. انظر الأغاني ١١٣/٩ والقيان والغناء ٧٥ و٢٧٠.
١١. انظر اللسان (عقزر) والقيان والغناء ٥٢.
١٢. انظر الخصائص ٣٥٧/١ وفقه اللغة ٣١٤ والمزهر ٢٦٦/١ و٢٧٦ وبعده، والقيان والغناء ٢٠٣ وأثر الدخيل ١١ و١٢ و١٤٤ وبعده. وهناك كتب عديدة ألفت في المعرب والدخيل ككتاب: (المعرب للجواليقي) و(شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل للخفاجي) فضلاً عن المعجمات اللغوية.
١٣. انظر فحول الشعراء ١٢ وطبقات فحول الشعراء ٥٢/١ و٦٥ و٦٧ والأغاني ١١٢/٩ والموشح ٦٢ و٧١ والعمدة ١٨١/١ وخرزانه الأدب ٨٤/١ و٨٥ والقيان والغناء ٢٢٩ و٢٣١.
١٤. انظر الشعر والشعراء ٢٢٥/١ و٢٢٨ وتاريخ الطبري ١٩٣/٢ و١٩٤ والموشح ٩١ والعمدة ١٠٤/١ وفجر الإسلام ١٧ وأثر الدخيل ٩٩ و١٠١ وبعده و١١٥ وبعده.
١٥. انظر فحول الشعراء ١١ وطبقات فحول الشعراء ٥٢/١ و٦٥ والسيرة النبوية ١٤٨/١ والشعر والشعراء

● حسين جمعة

- ٢٥٧/١ والأغاني ١٠٨/٩ والمؤتلف والمختلف ١٢- ٢٠ و ٢٠٣ و ٣٣٨ و ٤٠١ والموشح ٦٢- ٧١ وخزانة الأدب ٨٤/١ - ٨٥ وفي الأدب الجاهلي ٢٣١- ٢٣٢ والأعلام ٣٤١/٧ وتاريخ الأدب العربي (بلاشير ٣٥٥ وفروخ ٢٢١/١) ولسان العرب (عشنا).
- ١٦- ديوان الأعشى ١٧١ ب ٧ ق ١٧.
- ١٧- العمدة ١٣١/١ وانظر الشعر والشعراء ٢٥٨/١ والأغاني ١١٠/٩ وخزانة الأدب ٨٥/١ وتاريخ الأدب العربي (فروخ ٢٢٢/١) وانظر حاشية (٨٢) مما يأتي.
- ١٨- انظر الديوان ٩٣ ب ٢٥ ق ٦، و ٢١٣ ب ٢٥ ق ٢٣.
- ١٩- الديوان ٢٠٩ ب ٢٣ ق ٢٢.
- ٢٠- انظر الشعر والشعراء ٢٥٧/١ والأغاني ١٢٦- ١٢٥/٩ وسرح العيون ٢٥٣ وفي الأدب الجاهلي ٢٣١ وتاريخ الأدب العربي (فروخ ٢٢٢/١).
- ٢١- الأدب العربي (فروخ ٢٢٢/١)
- ٢٢- انظر اللسان (نبط) والتنبيه والإشراف ٦٨، انظر في الأدب الجاهلي ١١٦ وبعد..
- ٢٣- انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ٤٥ ب ٦٠٥ ق ٥، وص ٦٣ ب ١٣ ق ٩ وص ٨٤ ب ٢١- ٢٢ ق ١٦، وديوان تقيط بن يعمر الإيادي ٢٦ و ١٢٤ والبيان والتبيين ٢٦٧/١.
- ٢٤- الديوان ٢٦٥ ب ٢٤- ٢٥ ق ٣٤.
- ٢٥- الديوان ٢١٩- ٢٢١ ب ٩ و ١٤ ق ٢٦. وانظر العمدة ٢١٧/٢- ٢١٨ وأيام العرب قبل الإسلام ٤٨٩/٢ وبعد وتاريخ الطبري ٢١١/٢ وبعد.
- ٢٦- الديوان ٢٩٥ ب ٢٠١ ق ٤٠. وانظر أيام العرب في الجاهلية ٣٥- ٣٦.
- ٢٧- الديوان ٢٥٥ ب ١٦- ١٧ ق ٣٣. القت: نبات اسمه الفُضْفُصَة. يسنق: أي يصاب التخمة من كثرة الإطعام. الجل: غطاء الدابة. النقل: يسرع الفرس بنقل قوائمه.
- ٢٨- الشعر والشعراء ٢٦٤/١ وانظر العقد الفريد ٣٣١/٥ وكتابتنا مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ٩٣ و ١٠٢ و ١٠٣.
- ٢٩- انظر كتابنا: مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ص ٩١ وبعد (الفصل الخاص بمشهد الخيل).
- ٣٠- انظر طبقات فحول الشعراء ٢٥/١ والخصائص ٣٨٧/١ والبيان والتبيين ١٧١/١ و ٢٣٧ وانظر عدي بن زيد ١٠٠- ١٠١.
- ٣١- انظر تاريخ الطبري ٨٩/٢ و ٢١٣ وبعد، ومروج الذهب ٨٠ وبعد والغزل في العصر الجاهلي ٢٣٨.
- ٣٢- انظر طبقات فحول الشعراء ٦٥/١ والعمدة ٨٠/١- ٨١. وتاريخ الأدب العربي (بلاشير) ٣٥٦.
- ٣٣- انظر في الأدب الجاهلي ٢٣٦.
- ٣٤- الديوان ٧٧ ب ٥٦- ٥٩ ق ٤.
- ٣٥- الديوان ١٣٥ ب ٦ ق ١٢.
- ٣٦- انظر في الأدب الجاهلي ٢٣٧.

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

- انظر في الأدب الجاهلي ٢٣٧ والأعشى (التونجي) ٥٢ والتقيان الغناء ٢٢٧. ٣٧-
- ٣٨-الديوان ٢١٥ ب ق ٢٥ وانظر معجم البلدان (بانقيا). وبانقيا من نواحي الكوفة. وانظر الأغاني ١١٩/٩.
- ٣٩-الديوان ٢٥٣ ب ١ ق ٣٣ وهذا البيت مطلع قصيدة مدح بها الأعشى المخلِّق بن حنتم بن شداد في خبر مشهور انظر الأغاني ١١٨. ١٣/٩ والعمدة ٤٨/١. ٤٩.
- ٤٠-الشعر والشعراء ٢٥٨/١ والأغاني ١١٥/٩ والمعرّب ٧٢ و٢١٤ و٢٤٠ وسرح العيون ٢٥٣.
- ٤١-انظر مثلاً: الأغاني ١١٥/٩ وخزانة الأدب ٨٥/١.
- ٤٢-انظر الديوان بعض الأمثلة: ٩٥. ب. ٤٠. ٤٢. ق ٦ و٢٥٣. ٢٥٤. ب ٩ و١١ و١٤ ق ٣٣ و٢٧٣ ب ٢٢ ق ٣٥، و ٣٢٩ ب ٦ ق ١١. ٥٥.
- ٤٣-انظر مثلاً: تاريخ الطبري ٤٣/٢ و٦٨ و٧٠. ومعجم البلدان (حيرة) والشاهنامه ١٥٢ وبعدها وفجر الإسلام ١٦. ١٧. وانظر مروج الذهب ٩٠/٢ وما بعدها.
- ٤٤-انظر مروج الذهب ٢٦١/١ وتاريخ الطبري ٦٥/٢ و٦٨ و٧٠. والتنبية والإشراف ٨٨ واللسان (خرنق) ومعجم البلدان (حيرة).
- ٤٥-اللسان (سدر) ومعجم البلدان (حيرة -السدير).
- ٤٦-انظر الديوان ٥٣ ب ٢٣ ق ٢ و٢٥٤ ب ١٤ ق ٣٣ وانظر الأصمعيات ٦٠ ب ٢١ ق ١٤ للمنخل اليشكري.
- ٤٧-انظر الشاهنامه ١٦١ والغزل في العصر الجاهلي ١١٣.
- ٤٨-الديوان ٣٢٩ ب ٦ ق ١١. ٥٥. الذيف: المسرع. المقدم: الذي شد على أنفه وقمه خرقة وقاية من الأبخرة والأنفاس.. المصحاة: القدح من الفضة. البُقْم: شجر أحمر الساق يصبغ به. الجلسان والبنفسج وسيسنبر والمرزجوش: أسماء فارسية لأنماط من الأزهار والورد. هنزمن: عيد من أعياد النَّصاري (مُعَرَّب). مخشم: سكران، شديد السكر؛ فقد خشمه الشراب، حين دخلت أنفه فأسكرته. الأس والخيري والمرو والسوسن والشاهسفرم والياسمين والنرجس: كلها أسماء فارسية لأنواع من الرياحين (أكثرها عُرَّب). الدَّجُن: الغائم الممطر.
- المستق: آلة يضرب عليها (معرب). والوَن: نوع من الآلات الوترية. البَرَبُط: العود وهو المزهَر أيضاً عند فارس،... الصنج: آلة وترية مثل العود عند فارس؛ وهي عند العرب دوائر نحاسية توضع في أطراف الأصابع ويصفق بها على نغمات الموسيقى، وربما ربطت بالدفوف.
- ٤٩-الديوان ٢٠٩ ب ٢٠. ٢٢. ق ٢٢ القصاب: جمع القاصب وهو الزامر في القصب، ولعله يشبه الناي عندنا. المزهَر: العود، ولعله الدف الكبير. أزرى: عابه.
- ٥٠-انظر الأغاني ١٢٢/٩ و١٢٣ و١٢٧. وتاريخ الأدب العربي (فروخ) ٢٢٢/١ وبلاشير ٣٣٦ وبعده).
- ٥١-انظر الديوان ٦٣ ب ١ و١٤ و٢٣ و٢٩ ق ٣، وص ١٠١ ب ١٥ و١٢ ق ٧ وص ١٧٥ ب ١ و١٥ و٣٨ ق ١٨ وص ٢٠٧ ب ١ و٦ ق ٢٢ و٢٦٩ ب ١ و٧ و١٦ و١٧ ق ٣٥.
- ٥٢-انظر الديوان ١٣١ ق ١٢ و١٧٥ ق ١٨ و١٨٩ ق ٢٠ و١٩٩ ق ٢١ و٢٤٥ ق ٣٢ وانظر القيان والغناء ٢٤٥ و ٢٤٧.

● **حسين جمعة**

- ٥٣- انظر *الديوان* ١٨٩ ب ٤ ق ٢٠ وص ٢٥٧ ب ٢٦ ق ٣٣ والأخبار الطوال ٧٢ والمحاسن والأضداد ٤ والشاهنامة ٢٢٢ والعمدة ٢٢٣/١.
- ٥٤- انظر *القيان والغناء* ٢٤٧ وبعد؛ وراجع حاشية (١٤ و١٧ و٨٣).
- ٥٥- انظر *الديوان* ٢٥٣ ب ١١ و١٤ ق ٣٣ و٢٣٧ ب ٢٢ ق ٣٥ ز ٢٩١ ب ٣٢. ٣٣ ق ٣٩ و٣٢٩ ب ٥ ق ٥٥. و انظر *الديوان* ق ٦ ب ٣٩ وق ٩ ب ٢٨ وق ١٩ ب ١٨ وق ٣٢ ب ٢٠ وق ٣٥ ب ٢٢ و٣٦ ب ٣٤ و٣٥ وراجع حاشية (٥) مما تقدم.
- ٥٦- *الديوان* ١٣٣ ب ٣٠ ق ١٢. والسراب: يخفق ويتراءى للمسافر أنه ماء، وهو الآل في العربية.
- ٥٧- *الديوان* ٣٣١ ب ١٧ ق ٥٥ الدَّيَابُودُ: ثوب ينسج على نيرين. الأرنج: جلد أسود. الإسكاف: الصانع الماهر. العُظْم: نوع من الشجر يستخرج منه صَبْغٌ أسود يخضب به الشعر.
- ٥٨- *الديوان* ٢٢٧ ب ٢٣ ق ٢٨ وانظر فيه ٢٣٧ ب ١٢ ق ٣٠. التباين: جمع التبان وهو سروال يلبسه الملاحون... محصد: أي زرع وحن حصاده.
- ٥٩- *الديوان* ١٤٣ ب ٤٧. ٤٩ ق ١٣ غير متتب: لا يستحي، فعلها تأب أي استحي. الطبع: الوسخ.
- ٦٠- انظر ما أورده في *الديوان* في صفة كسرى نفسه ٢٦٩ ب ٣٨ ق ٣٤؛ وانظر عطاء الأسود بن المنذر في مدح الأعشى له ص ٤٥ ب ٤٩ ق ١.
- ٦١- انظر *الديوان* ٢٢١ ب ١٣. ١٤ ق ٢٦ و٢٦٥ ق ٣٤ وأيام العرب قبل الإسلام ٤٨٩/٢ و٤٩٧. ٤٩٩. والعقد الفريد ٣٥٤/٣. والعصر الجاهلي ٣٢٧.
- ٦٢- *الديوان* ٣٢٥ ب ٢٦ و٢٨. ٢٩ ق ٥٤.
- ٦٣- *الديوان* ٢٧٣. ٢٧٥. ٨ ب ١٠ و١٢ ق ٣٦ وانظر *تاريخ الطبري* ٥٨/٢. ٥٩. عمرو: هو عمرو بن هند؛ وكان ملك الحيرة قبل النعمان بن المنذر. طَلَح: نعمة وسعادة. بنو بُرْجان: قوم من الروم. طحون: أي كتيبة تطحن ما يعترضها. صَبَّح: أي بريق الدروع والسيوف.
- ٦٤- انظر *السير السيرة النبوية* ٧٨/١ والأخبار الطوال ٤٨. ٤٩. والأغانى ١٤٠/٢ و١٤٤. ومروج الذهب ٢٩٦/١.
- ٦٥- *الديوان* ٧٩ ب ٦٠. ٦٣. ٦٦ ق ٤؛ شاهيون: شاه: ملك، بوز: ابن، أي ملك بن ملك.
- ٦٦- *الديوان* ٣٤٧ ب ١٧. ١٩ ق ٦٢؛ وانظر أيام العرب قبل الإسلام ٤٩٧/٢. ٤٩٩. وأيام العرب في الجاهلية ٣٤ وراجع حاشية (٢١) مما تقدم.
- ججاجح: جمع ججاجح، وهو السيد المسارع إلى الكرم والنجدة، ومثله الغُطْرَيْف؛ وجمعه غطارفة. التُّطْف: جمع النطفة وهي اللؤلؤة تعلقها العجم في الأذان.
- ٦٧- انظر *الديوان* ١٤٥ ب ٦٢. ٦٧. ١٣ ق ١٣، وأيام العرب في الجاهلية ٣٤. ٣٦. ٣٨ وراجع حاشية (٢١) مما تقدم.
- ٦٨- انظر *الديوان* ٢٢١ ب ١٣. ١٤ ق ٢٦، وراجع ما تقدم حاشية (٢٥).
- ٦٩- انظر. مثلاً. *الديوان* ٤٧ ق ١ و٩٥ ق ٢ و٦٩ ق ٣ و٧٣ ق ٤ و١٢٣ ق ١٠ و١٣٥ ق ١٢ و١٦٣ ق ٢٣ و٢٢٧ ق ٢٨.
- ٧٠- انظر *الديوان* ٣٩٥ ب ٢٣ ق ٧٨.

● المؤثرات الفارسية في شعر الأعشى

- ٧١- انظر الشعر والشعراء ٧٥. ٧٤/١.
- ٧٢- انظر الأخبار الطوال ٧١. ٧٣. ومروج الذهب ٢٢٩/١ و٢٣٥ و٢٤٥ و٢٤٩ والتنبية والإشراف ٨٥ و٨٨ و٩١. ٩٢ والفهرست ٨١. ٢١. والشاهنامه ١٦٩ والمجموعة الفارسية ٤١ وراجع ما تقدم (حاشية ٢١ و٢٢ و٢٣).
- ٧٣- انظر تاريخ الطبري ٦٥/٢. ٧١. ٢١٥ ومروج الذهب ٢٦١/١ والتنبية والإشراف ٨٨ والشاهنامه ١٤٥ وبعد وفجر الإسلام ١٧.
- ٧٤- انظر البيان والتبيين ٢٢١/١ و٢٨٤. ٣٨٥. ٣٨٤/٣ و١٤. ٢٧ و٢٨. والعمدة ٧٨/١ و١٣٥ وبعد وفي العمدة كلام ذو مغزى بعيد؛ وانظر زهر الآداب ١٩٦/١ و٢٥١ و٥٤٤/٢ ودراسات في الشاهنامه ٢٧ و٥٨ وتأثير الحكم الفارسية ٥٠ و٥٥ وبعد ٧٦ وبعد ١٠٣ وبعد ١٧٣ وبعد وتاريخ الشعر العربي ٢٣٦ والأعشى ٥٢.
- ٧٥- انظر البيان والتبيين ٣٨٥/١ و١٣/٣ و٢٧ و٢٩ وزهر الآداب ١٩٦/١. ١٩٧. والمحاسن والأضداد ٤ و١٤٤ ودراسات في الشاهنامه ٥١ و٥٢ و٢٤٢. ٢٩٦. وبعد، والموازنة ٣٨١ و٣٨٣ وتأثير الحكم الفارسية ٧٥ و٨٥ و٩٦ و١٢٠.
- ٧٦- انظر قصيدة الرثاء. جنود وأطوار. ١١٧. وما بعدها، ومراجع الحاشية الآتية.
- ٧٧- انظر دراسات في الشاهنامه ٨ و٢٣ و١٠٢ وحكايا بلاد فارس ٧/١. ٨. وتأثير الحكم الفارسية ٤٣ و٤٦. ٥٠. ٦٧ و٦٩ وبعد ٧٥ وبعد ١٦١ وبعد ٢٠٢ وبعد.
- ٧٨- انظر دراسات في الشاهنامه ٨ و٢٣ و١٠٢ وحكايا بلاد فارس ٧/١. ٨. وتأثير الحكم الفارسية ٤٣ و٤٦. ٥٠. ٦٧ و٦٩ وبعد ٧٥ وبعد ١٦١ وبعد ٢٠٢ وبعد.
- ٧٩- انظر مثلاً من كتب الاستشراق (تراث فارس. للمستشرق أ. ج. أربري) و(إيران في عهد الساسانيين. للمستشرق آرثر كرستسن).
- ٨٠- العمدة ١٨١/١.